

سمو الفقر

في المصلح الاجتماعي الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

- ١ -

كان النبي صلى الله عليه وسلم على ما يصف التاريخ من الفقر والقلّة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر ولا تناله المعاني النفسية التي تعلق بعرض من الدنيا وتنزل بعرض ، فما كانت به خلة تحدث هدمًا في الحياة فيرميها المال ، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا ، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق ، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدرك معيشته فيحتلبها ذهبًا أو فضة ، ولا استقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم ؛ فإن المعنى الحى لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على قدر من السعة والغنى ؛ والمعنى الحى للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعُسرة .

إن فقره صلى الله عليه وسلم كان من أنه يتسع في الكون لا في المال ، فهو فقير يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن ، وهو خاص به ، ومن أين تدبرته رأيت في حقيقته معجزة تواضعت وغيّرت اسمها . معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى ، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرنًا ، وهي اليوم تثبت بالبرهان معنى قوله صلى الله عليه وسلم في صفة نفسه « إنما أنا رحمة مهداة »

نحن في عصر تكاد الفضيلة الإنسانية فيه تلحق بالألفاظ التاريخية التي تدل على ما كان قديمًا . . بل عادت كلمة من كلمات الشعر تراد لتحريك النسيم اللغوي الراكد في الخيال ، كما تقول : السحاب الأزرق ، والفجر الأبيض ، والشفق الأحمر ، والتطاريق اوردية على ذيل الشمس ؛ وأصبح الناس ينظر أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشى لو لمس لضرب

أو طعن أو ذبح ؛ وعملت المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعري لأنسانها الغنى ترفا ونعمة واقتنانًا بين ذلك ، من أيسر الحلال إلى الفظيع المتفاحش في الإباحة ، فكأنما وضعت المدنية عقلاً في وحش ، فزاغت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحش لأنسانها الفقير ، فكأنما نزع عقلاً من إنسان ، فضلت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سرف الهوى ، وكان مع الثانى سرف الحماسة .

وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن صناعته في المدنية هي عمل الغنى للأغنياء . . وأن يكون الغنى غنياً وهو يعلم أن عمله في المدنية هو صنعة الفقر لضميره .

وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة في فلسفة المعاشة الإنسانية التي يسمونها « الاجتماع » ، فسؤال اسمه الاشتراكية يسأل القوة أن تجعل صاحب المال من ماله كالمرأة المطلقة من رجلها . . وسؤال اسمه الشيوعية يطلب من القوة أن تسلط على كل حى ما يجعله في قواه كصاحب الدار سلط عليه الطغيان فانقلبت داره سجنه ، فهو يتألم من معنى نعمته بمعنى شقائه ، ويكون أغيب له أن روح السجن ليست شيئاً غير روح البيت ؛ وسؤال اسمه العدمية ^(١) يأمر القوة أن تجعل الإنسان كالحیوان المستنويغ فيما يجده من طيب وخبيث لا يبالى ذماً ولا عاراً ، وليس إلا أنه يعيش ليموت أكلاً ونوماً . . .

هذا إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدّها ونصفها لطلال بنا القول وكلها عاملة على نزع الشعور العقلى من الحياة لتظهر أسخف مما هي ، وأقبح مما كانت ؛ حتى أصبحت الشمس تمحو ليلاً عن المادة وتلقى ليلاً على النفس ، في حين أن الدين والإنسانية لا يعملان غير بث هذا النور العقلى في الأشياء والمعاني لتظهر الحياة مضيئة ملتمة فتصبح أوضح مما هي في نفسها ، وأجل مما هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صعدت بالفلسفة ونزلت ، وجعلت من العلم في صدر الإنسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها ، وتركت العالم يضج ضجيج المزعج في قلب

(١) الفوضوية وما هو في معناها من طيش النزعة

هنا ، أى فى الإرادة التى فىك وحدك ، لا هناك ، أى فى الخيال الذى هو فى كل شىء . وهنا ، فى أخلاقك وفنائك التى لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة ؛ وليس هناك ، فى أموالك ومعاشك التى تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نهبة أو سرقة . هنا ، فى الروح إذ تشعر الروح أنها موجودة ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها ، منتهية بجسدها إلى الموت الإنسانى على سنة النفس الخالدة ؛ وليس هناك فى الحس إذ يتعلق الحس بما يتقلب على الجسم فهو مهتاج لشعوره بوشك فناءه فلا يحدث إلا الألم إن نال أو لم ينل ، وهو منتهى بجسمه إلى الموت الحيوانى بين آكل ومأكول على سنة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك

إن الحكيم الذى ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرف أسرارها لا تكون له حياة الذى يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظره ، هذا الأخير هو فى نفسه شىء من الأشياء له مظهر المادة وخداعها عن الحقيقة ، وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء مالا يطيقه الناس ولا يضبطونه إذا تكلفوه ، بل ينخرق عليهم فيكون منه العجز ، وينشأ من العجز الغلط ، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة الانهائية ، يرى بداية كل شىء مادية هى نهايته فى التو واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجود غير موجود ، مبتدىء منتهى معاً . وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتأثيرها ، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها ، ويجد لها الناس فى حياتهم الشجرة والفرع والثمرة ، وما لها عنده هو جذر ولا فرع . وبهذا لم يفتنه شىء ولم يتعلق بشىء ، وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاصر عنه ، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب فى نموه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام ، فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدة خالية مما جمع فيها الزمن وأهله

كل حى حتى لتذاع الهموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم فى « الراديو » . . . فى مثل هذا البلاء الماحق تتلفت الإنسانية إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الإنسانى القديم تطيب منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمت لعلمت أن درس هذا العصر فى علاج مشاكله الإنسانية هو « محمد » صلى الله عليه وسلم الذى لن يبلغ أحد فى وصفه الاجتماعى ما بلغ هو فى قوله « إنما أنا رحمة مهداة »

هذا المصلح الاجتماعى الأعظم يلقي فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية ، لا من كتاب ولا فكر ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلح من فكر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحى العظيم الذى تلتسمه الفكرة العظيمة لتحيا فيه وتجعل له عمراً ذهنياً يكون مُصرِّفاً على حكمها ، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها . وما كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عمراً ذهنياً محضاً تمر فيه المعانى الآلهية لتظهر للناس إلهية مفسرة . وكل حياته صلى الله عليه وسلم دروس مفسرة مختلفة المعانى ، ولكنها فى مجملها تخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكذب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرة فلا تكن أنت فى الطفولة النزقة ؛ فإن الرجل يعرف ويدرك فهو بذلك وراء الحقيقى ، ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينه فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشه ونزقه ، وإيثاره كل عاجل وإن قل ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة فى مثل توثب أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى الحياة فى ذاتك الداخلية وقانون كالمها ، فإذا استطعت أن تُخرج للأرض معنى مماويها من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً فى الإنسانية وأنت بذلك عائش فى القريب القريب من الروح ، وأنت به شىء إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشت فى دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائش فى البعيد البعيد من النفس وأنت به شىء أرضى كالحجر والتراب .

به من الريح المرسلة ، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده ، ولا يتركه ينبت في عمله ، وإنما كان عمله ترجمة لأحاسسه الروحية ، فهو رسول تعليمي ، قلبه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية ، وأن هذا الانسان مع المادة الصامتة العمياء مادة مفكرة مميزة ، وأن الدين قوة روحية يلقي بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بازائها شيء على شئيتها ، إذ الروح خلود وبقاء ، والمادة فناء وتحول ، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها ، فان لم تخضع لم تخضع لها ، وإن لم تتغير لا تتغير الروح بها ، وأساس الايمان أن ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرف بما لا ينتهي .

وما قيمة العقيدة إلا بصدقها في الحياة ، وأكثر ما يصنع هذا المال : إما الكذب الصريح في الحياة ، وإما شبهة الكذب ، ولهذا تنزه النبي صلى الله عليه وسلم عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبي الإنسانية ومثلها الأعلى ، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس إيجاداً لحل مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسعاً من ناحية وتضييقاً من الناحية الأخرى ، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك ، بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى اقرار التوازن في الإنسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون . وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الانساني — أثبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها ، فإذا هو في قانون السمو ، وإذا المادة في قانون الثقل ، فيرتفع وتهوى ، ويصبح الذهب — وإنه ذهب — وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب .

مصطفى صادق الرافعي

من طمع وشره ، وجاء آدم ليعطى الأرض ناسها من صلبه ، وجاء محمد ليعطى الناس قوانينهم من فضائله ، فأدم بشخصه هو دنيا بُعثت لتتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنظم .

وماذا يفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة ؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الانسان تتحكم فيه لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ، وأن الانسان الصحيح الذي لم تزوره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح في حكم النور وانطلاقه وحرية ، ولا ينكمش فيحصره جسمه في غاياته وضروراته فيرتد إلى ما هو أسفل أسفل حتى يعود في حكم التراب وأسره وعبوديته . فالفقر وما اليه ، والزهد هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل — كل ذلك ان هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال ، وشيئاً بعد شيء ، لتضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تبالها ولا تقيم لها وزناً . فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور ، تراها هي مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير ، وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأستاذ المعلم ، تدخل المادة إلى معمله وهي مادة وفكرة ، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة ، وعلى أي أحوالها فهي إنما تحس في ذلك المعلم بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكن فيها الذهن والفكر ، وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة ، ولكن طبيعة الانتباه والتحرز ، وليست في أسر المادة ، ولكن المادة في أسرها ماشاءت .

ولا يسمى فقره صلى الله عليه وسلم زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ، ولا يحققون أصوله النفسية ، وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء قراءات مجحولة لا تفصيل لها ، مُفرغة لا تبين فيها ، وما بها من ذلك شيء ، غير أنها تتراءى في بقية من البصر لا تغمرها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومثلة ، وهي في رأي تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها فليس يعلم إلا الله وحده : أذاك تفسير لانسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسير بالتراب

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يملك المال ويمجده ، وكان أجود

الرسالة في شهور الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة

العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهري بواقع

أربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً